للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتى بالعرش فى هذا الوقت يعنى : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شىء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة فى عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوى » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف[1] :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الطرف : الجفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء فى هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الْكِتَابِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) : « أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . وانظر (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤) . (والدر المنثور للسيوطى ٣٦٠/٦) .

المحفوظ ، أما الذى عنده علم من الكتاب فقالوا[1] : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون[2] : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] قال هو : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان فى معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتى بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم فى مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضى الأفضلية ، وليس شَرْطاً فى الملك أنْ يعرف كل شىء ، وإلا لَقُلْنا للملك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير فى القدرات بين مَنْ يأتى بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتى به فى طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شىء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه فى مكانه ، أما الرجل فبيده وفى سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها فى وسائل

---

(١) قاله ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، وقتادة . انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤) وقاله الحسن أيضاً (الدر المنثور ٦/٣٦٠) .

(٢) قال ابن عطية : قالت فرقة هو سليمان عليه السلام . نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٨٧) ولكنه قال قبله : « لا يصح فى سياق الكلام مثل هذا التأويل » .

المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها فى قصة « الإسراء والمعراج » فقد أُسْرِى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة فى سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التى لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه ﷺ مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذى شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق - تبارك وتعالى - بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] أى : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش فى طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التى لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفى قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ④⓪ ﴾ [النمل] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحنى من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتى .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ①③ ﴾ [سبأ]

(١) الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة الكبيرة جداً . والجوابُ جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : أى كالجوبة من الأرض . وقال العوفى عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير ٣/٥٢٨] .

وليعلموا أنهم جـهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمـان وهو ميت ومُتكئ على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتحـدى قـد يـكون بالعُلُوِّ ، وقـد يكون بالـدُّنُو ، كـالذى قـال لصاحبـه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأسـتطيع أنْ أركب معك السيـارة وأقول لك : أين نـحن منها ، وأمـام أىّ محل ، وأنا مُـغْمض العينين ، فـقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبـرك بذلك بدون أن أُغمض عَيْنىّ .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ .. ۝ ﴾ [النمل] أى : العرش ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَـضْلِ رَبِّى .. ۝ ﴾ [النمل] إمـا لأنه أقـدره على الإتيـان به بنفـسه ، أو سخّـر له مَنْ عنده علم من الكتـاب ، فأتاه به ، فـهذه أو ذاك فضل من الله .

﴿ لِيَبْلُوَنِى .. ۝ ﴾ [النمل] يخـتبـرنى ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْـفُرُ .. ۝ ﴾ [النمل] يعنى : أشكر الله فأُوفَّق فى هذا الاُخـتبار ؟ أم أكفـر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيـه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندى .

وقوله : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. ۝ ﴾ [النمل] أى : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله ـ سبـحانه وتعالى ـ صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فـإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿ وَمَن كَفَرَ .. ۝ ﴾ [النمل] يعنى : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ .. ۝ ﴾ [النمل] أى : عن شكره ﴿ كَـرِيمٌ ۝ ﴾ [النمل]

أى : يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها فى آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً :

فالأولى تُختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ فى الآية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نعَم الله فى الكون ، فهى فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدم على هذه المسألةَ أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصَوا كلَ شىء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لإحصائها أحد فى معهد أو جامعة ممن تخصصت فى الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدَّى لإحصاء عدد الرمل فى الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] ولم يقُلْ : نعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

قوله : ﴿ نكِّرُوا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها فى سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] يعنى : غيِّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيَّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] تهتدى إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدى عقلياً إلى الجواب فى مسألة العرش .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُك .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] ليُعمِّى عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُك .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ..﴿٤٢﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغُيِّر ما كان فيه أحمر جُعل أصفر ، وما كان أصفر جُعل أحمر ، وما كان أخضر جُعل أحمر غيِّر كل شىء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٤] .

[النمل] وعندها فـهم سليمـان أنها على قَـدْر كبـير من الذكـاء والفطْنة وحصافة الرأى .

وكـذلك كلام السَّـاسَة والدبلومـاسيـين تجـده كلامـاً يصلح لكل الاحتمـالات ولأىِّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خـلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أقُلْ لك كذا وكذا .

ومن ذلك مـا قاله معـاوية بن أبى سفـيان للأحنف بـن قيس[1] : يا أحنف لمـاذا لا تسبّ علياً على المنبر كـمـا يسبّـه الناس ؟ فقـال الأحنف : اعفنـى يا أمير المـؤمنين ، فقـال معاوية : عـزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أمـا وقد عزمت علىَّ فسأصعد الـمنبر ، ولكنى سأقول للناس : إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معى : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا ؟ لأن اللعن فى هذه الحـالة سيعود على مَنْ ؟ على مـعاوية أو علَى علىّ ؟

وتُحكَى قـصة الخـيَّاط الأعـور الذى خاط لأحـد الشعـراء جُبَّـة ، فـجاءت وأحَـد الكُمَّيْن أطول من الآخـر ، فلم يسـتطع لبسـها ، فلمـا سألوه عن عـدم لُبْس الجبـة الجديدة أخـبرهم بمـا حدث من الخـياط فقالوا : أُهْجه ، فقال :

قُلْتُ شـعْراً لَيْس يُـدْرَى أمـديـحٌ أمْ هجَـــاءُ
خَاطَ لِـى عَمْــرو قُبـاء لَيْتَ عينـيـه سَـــوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيـين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسى الذى يهرب به صاحبه من المواجهة .

(١) هو : أبو بحر ، سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحـاء ، يُضرب به المثل فى الحلْم ، وُلد فى البـصرة (٣ ق هـ) ، وأدرك النبى ﷺ ولـم يره ، شهـد الفتـوح فى خراسـان ، واعتـزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهـد صفين مع على . توفى بالكوفـة عام (٧٢ هـ) عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/ ٢٧٦] .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢) ﴾ [النمل] أما ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾ [النمل] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعنى : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبيٌّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ فى حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ (١) إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣) ﴾

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذى ألفَتْه ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) ﴾ [النمل] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (٢) وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ (٣) مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤) ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٥) : « هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير ، أى قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾ [النمل] وهى كانت قد صدَّها أى منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) ﴾ [النمل] » .

(٢) أى : حسبته ماء . ولُجة الماء : معظمه ، وخصَّ بعضهم به معظم البحر [بتصرف من تفسير القرطبى ٧/٥٠٩٢ ، اللسان ـ مادة : لجج] .

(٣) الصرح : قال الزجاج : الصرح فى اللغة : القصر والصَّحْن . يُقال : هذه صرحة الدار وقارعتها أى : ساحتها وعرصتها . وقال بعض المفسرين : الصَّرْح : بلاط اتخذ لها من قوارير . والصرح : الأرض المملسة . [لسان العرب ـ مادة : صرح] والقوارير : جمع قارورة ، وهى لا تكون إلا من الزجاج .

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً .. (٤٤)﴾ [النمل] ظنَّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البَلَل ؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعنى : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نبَّهها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. (٤٤)﴾ [النمل] يعنى : ادخلى لا تخافى بللاً ، فهذا ليس لُجةَ ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعنى : مبنىٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. (٤٤)﴾ [النمل] بالكفر أولاً ، وبظنِّ السوء فى سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقنى فى لجة الماء ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القول السابق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] مثل قول سَحَرة فرعون لما رأوا المعجزة : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ؛ لأنه السبب فى ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّى أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة[1] .

ثم يأتي بنا الحق سبحانه إلى نبي آخر في موكب الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبي الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ في بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لا بُدَّ أنه أُرسل بشيء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لذلك سُمِّيت (أَنْ) التفسيرية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

وقد يأتي التفسير بجملة ، كما في : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ..

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٥) هذه القصة ، وعزاه لمحمد بن كعب القرظي وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وابن جريج . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » (ص ٣٤٨) .

(١٢٠)﴾ [طه] بأى شىء ؟ ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ [طه]

فشرح الوسوسة وهى شىء عام بقوله : ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ .. (١٢٠)﴾ [طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل]

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزَجر ، أما ما لم يردْ فيه أمر ولا نَهْى فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥٪ من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقى فهو مُباح .

إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها ؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها ؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل]

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿فَرِيقَانِ .. (٤٥)﴾ [النمل] مثنى و ﴿يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فلكُلٍّ طائفة منهما رأىٌ واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ .. (٤٥) ﴾ [النمل] أى : مؤمنون وكافرون ﴿ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ[1] مِنْ

(١) المقامع : جمع مقمعة ، وهى خشبة أو حديدة يُقمع بها الحيوان ليُذلّ ويطيع . وقوله ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) ﴾ [الحج] أى : يُضربون بها ، كلما أرادوا الخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب بالمقامع إذلالاً لهم . [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

حَديد (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ [الحج]

أما الفريق الآخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج]

فبيَّن لنا الحق ـ سبحانه ـ كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿فَإِذَا .. (٤٥)﴾ [النمل] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجئت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضي أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد في المجتمع ، الخالق عز وجل خلق في الإنسان النفس اللوامة التي تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التي اطمأنتْ بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم في افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهي التي لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهَّد المربَّى ليؤدي

غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّى أبناءه إلا لغاية ؟ وما دام هو سبحانه ربى فلا يأمرنى إلا لصالحى ، وصالح مجتمعى ، فلا شىء من طاعتنا يعود عليه بالنفع ولا شىء من معاصينا يعود عليه بالضرر ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخصومة تجمع المؤمنين فى جهة ؛ لأنهم اتفقوا على الإيمان . والكافرين فى جهة ؛ لأنهم اتفقوا على الكفر . لكن يمتاز المؤمنون بأن يظل وفاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعند لقاء الله تعالى فى الجنة ؛ لأنهم اتفقوا فى الدنيا فى خطة العمل وفى الآخرة فى غاية الجزاء ، كما يقول تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

أما الكفار فسوف تقوم بينهم الخصومات يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، والقرآن حين يُصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ[1] وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

(١) الحميم من ألفاظ الأضداد ، يكون الماء البارد ، ويكون الماء الحار . والحميم : العَرق . [لسان العرب ـ مادة : حمم] والغساق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . [اللسان ـ مادة : غسق] .

ضعفًا في النَّار (٦١) وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنَّا نعدُّهم من الأشرار (٦٢) أتَّخذناهم سخريًّا أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) إنَّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النَّار (٦٤) ﴾ [ص]

إذن : فالخصومة في الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما في الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أضلُّوا والذين أُضلُّوا ، بين الذين اتَّبعوا ، والذين اتُّبعوا .

(١)

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾

لما ذُكرت قصة ثمود في الشعراء ، لم تذكر شيئًا عن استعجال السيئة ، فما هي السيئة التي استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هي قولهم: ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وعجيب أمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم في هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إنَّما التَّوبةُ على الله للَّذين يعملون السُّوء بجهالة ثُمَّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيمًا (١٧) وليست التَّوبةُ للَّذين يعملون السَّيِّئات حتَّىٰ إذا حضر أحدهم الموتُ قال إنِّي تبتُ الآن ولا الَّذين يموتون وهم كفَّارٌ أولئك أعتدنا لهم عذابًا أليمًا (١٨) ﴾ [النساء]

---

(١) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، وقال القرطبي : المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذي يُوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبي ٥٠٩٧/٧] .